المجتمع العربي قبل الإسلام : دراسة قرآنية

عبد الرحمن حللي *

تعتبر البيئة التي شهدت ختم النبوة ذات دلالة هامة حول علاقة الرسالة بالواقع والسياق الجغرافي والتاريخي الذي بدأت فيه، كما أن معرفتها مهمة في فهم طبيعة الرسالة الخاتمة وخصائصها، والإلمام بهذه البيئة يكتنفه الكثير من الصعوبات والغموض لاسيما فيما يخص الواقع الديني الذي كان سائداً آنذاك، إذ إن المراجع التاريخية حول هذه المرحلة وفي الجانب الديني بالخصوص قليلة جداً، وما وجد منها لا يفيد في الموضوع إلا إشارات ودلالات عامة لا تفسر العقلية والتفكير الديني الذي كان سائداً بخلاف مناطق ومراحل تاريخية أخرى حيث توجد حولها نصوص ونقوش مفصلة أحياناً، وهذا ما عانى منه مختلف المؤرخين الذين اشتغلوا في الموضوع(1)، أما النص القرآني فأسلوبه بشكل عام يبتعد عن التفصيل في المواضيع التاريخية فيأتي بذكرها لتحقيق هدف خاص هو العبرة والنقد والتوجيه نحو المستقبل واكتشاف السنة الإلهية، لذلك فهو غير صريح في الدلالة على ما كان سائداً، لكن ما ورد فيه من نقد متواتر لما كان سائداً من عادات وتقاليد وأفكار يمكن أن يكون مرجعاً غير مباشر لاكتشاف تلك البيئة المثيرة(2)، وهذا ما سنتتبعه في هذه المقاربة مستأنسين ببعض ما ورد في الدراسات التاريخية المتخصصة في تلك المرحلة، وقد لوحظ أن القرآن يقدم الدين الجاهلي بصورة تختلف تماماً عما تقدمه كتب التاريخ والأدب(3)، لاسيما وأن تلك المصادر سعت إلى تقليل شأن عصر النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيئته قبل البعثة من الناحية المادية والأدبية والمدارك العقلية حيث تصفها بصفات الجهل والانحطاط والغلظة..، وهي نظرة تخالف ما تلهمه نصوص القرآن عن تلك الفترة(4).

المجتمع بين البدو والحضر:

من الصعوبات التي نود أن نشير إليها والتي لم يسعف فيها النص القرآني ولا الدراسات التاريخية، الخلط في المصادر بين البيئة الحضرية المكية التي بعث فيها الرسول وبين عادات وتقاليد أهل البدو والمناطق غير الحضرية، فما ورد عن العرب في الجزيرة العربية يتم تداوله مجملاً من غير تفصيل(5)، فهل ما ورد كان خاصاً بأهل مكة من العرب أم يشمل ما جاورهم في أصقاع الجزيرة العربية من بواد وحواضر أخرى غير مكة وهي غير قليلة وعلى صلة مباشرة بأهل مكة، وما يدعو إلى إثارة هذا التساؤل ما يمكن ملاحظته من تناقض في العادات(6)، والقيم الواردة عنهم مجملة دون تفصيل، بل إن بعض المستشرقين شكك في مدينية مكة باعتبارها محطة للقوافل(7).

وإذا تأملنا في القرآن نجد إشارات خاصة إلى الأعراب(8) الذين يكونون عادة حول

القرى(9)، وبينت الآيات بعض أخلاقهم وعاداتهم وكيفية تعاملهم مع الرسول مشيرة إلى كونهم أشد كفراً وغلظة من أهل الحضر(10)، مما يدل على تفاوت في قيم التعامل مع الرسالة بين أهل القرى وأهل البادية، كما أن الأعراب أنفسهم -كما تشير الآيات- لم يكونوا على درجة واحدة في تلقي الرسالة وتعاملهم معها(11)، ومما يلح على ضرورة التمييز بين البدو الحضر هو ظاهرة تعميم حال البدو الرُّحَّل واعتبارهم مقياساً للثقافة العربية فيما قبل الإسلام(12).

لكن بعض الباحثين لاحظ ضرورة إعادة الاعتبار للقرشيين الذين كانوا أكثر وعياً وذكاء وإنسانية من الجموع البدوية، وأنه كانت لهم قدرات أخلاقية وفكرية استثنائية، لا يستبعد أنها تكرست عبر تحول الشخصية لأناس كانوا بدواً في الماضي وذلك بفضل الاستقرار الذي ساعد عليه توطد التجارة في مكة(13)، وأن هذا الوضع الجديد للقرشيين في مكة أدى إلى دخول قيم جديدة بفضل الثروة ومن هذه القيم النزعة الفردية وروح المنافسة مقابل المثل الجماعية التي كانت طاغية، ويحاول هذا التفسير إبراز حاجة المجتمع إلى قيم جديدة تحافظ على القبيلة(14).

أياً يكن الأمر فيما يخص الاختلاف بين أهل القرى وأهل البادية وما كان سائداً بين كل من نظُمٍ وقيمٍ، فإن من ميزات الإسلام أنه استطاع صهر المجموعات البدوية والحضرية في نسقٍ واحدٍ ووجههم في خط الرسالة(15)، والأهم هو فهم هذا المنهج القرآني من خلال الأفكار التي نقدها القرآن مجملة من غير تفصيل بيئتها وخلفيتها وأصحابها، كما هو الشأن في الكثير من القصص القرآني، فما لم يكن التاريخ مؤثراً في العبرة والدلالة يهمل، والذي يمكن تلمّسه من خلال هذا العموم القرآني في الحديث عما كان سائداً قبل البعثة هو الثراء والتنوع والتناقض في القيم والأديان والعادات التي كانت سائدة قبل البعثة، حتى اعتبرت الجزيرة العربية مختزلة لأديان ومعتقدات العالم السماوي منها والأرضي(16)، وفي هذا الإطلاق والتنوع في بيئة جغرافية مركزية تشهد حركية منقطعة النظير بين مختلف المناطق من العالم دلالة على الحكمة من كون الرسالة الخاتمة تنطلق من هذه البيئة إلى العالم إذ ستأخذ طابع البيئة التي انطلقت منها وهو العالمية، وهذا ما يدعونا إلى اكتشاف مكة في عصر ما قبل البعثة وما أهَّلها لاحتضان مبعث النبوة الخاتمة.

مكة قبل البعثة:

إذا ذكرت مكة تعود الذاكرة إلى إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ورفعهما القواعد من البيت ونداء إبراهيم في الناس بالحج، ودعاء إبراهيم لأهل هذا البيت(17)، وفي هذه الإشارة والعلاقة بين إسماعيل وذريته والبيت الحرام دلالة على التقابل مع إسحاق وتوالي الأنبياء من ذريته، فكانت ذرية إبراهيم قد شرفت بالتاريخ الرسالي والجغرافية المقدسة والمحرمة، فلئن اختص نسل إسحاق بالأنبياء فإن نسل إسماعيل ارتبط بالمكان الذي أصبح مركزاً ومآلاً للرسالات التي ختمت به لتنطلق إلى العالم بصيغة نهائية تناسب الكونية التي غدت تحتلها مكة وبيتها الحرام، أول بيت وضع للناس(18)، الذي سيصبح

مركز التاريخ الإنساني(19)، هذه المركزية والعمق التاريخي لمكة الذي يشير إليه القرآن يدعو لمعرفة أحوالها وذلك لفهم الأساس الذي قام عليه الإسلام(20).

يطلق القرآن على مكة اسم أم القرى(21) مما يحمل دلالة على محوريتها بين القرى الأخرى التي ترجع إليها وتقلدها كعاصمة توجه المنطقة(22)، فموقفها من أي قضية يؤثر بموقف المناطق الأخرى حتى إذا فتحت ودانت بالإسلام تبعها الناس(23)، ومما لا يحتاج إلى تأكيد أن وجود الكعبة ومناسك الحج فيها كان العامل الأكبر في مكانة مكة والمركز المعنوي الذي تتمتع به(24)، إضافة إلى ما كانت تتمتع به من حركية تجارية بفضل موقعها على الطريق التجاري البري بين اليمن وبلاد الهلال الخصيب، وممارسة أهلها للتجارة مع مختلف بقاع العالم براً وبحراً، وكذلك المهن المرتبطة بالتجارة(25)، والقرآن يحفل بالآيات الدالة على ذلك فالقرآن يستعمل تعابير مالية وتجارية لا بد كانت مفهومة ومتداولة مثل: الحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والقرض، كما ذُكرت السفن والجواري والمنشآت في البحر، وتردد فيه ذكر تجارة البحر، كما كانت ظاهرة الاستثمار بالربا والقرض ظاهرة منتشرة كما تدل آيات الربا في القرآن. وسورة قريش(26) واضحة الدلالة على الرحلات التجارية البرية وما كان يعقد فيها من اتفاقيات وعلاقات، والسور المكية تحفل بما يدل على ثرواتهم الطائلة(27) . كما أن عاداتهم في استقبال القوافل التجارية بقيت مستمرة لما بعد الإسلام(28). كل ذلك يدل على المكانة التجارية التي كانت تحتلها مكة قبل البعثة، ويستتبع هذه المكانة مستوى من الوعي الضروري الذي أهَّلهم للقيام بهذا الدور.

هذا والمكانة الدينية التي تحتلها مكة منذ القدم(29) هي العامل الأساسي في نجاحها التجاري، إذ شكل موسم الحج فيها سوقاً تجارياً سنوياً، والأهم من ذلك ما وفره الحرم من أمن لمكة تلك المدينة التي لا تمتلك عوامل الأمن الطبيعية فجاء أمنها من قدسيتها واحترامها عند الناس وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب في الأمن المكي (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم)، (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ)، بل هناك آية قرآنية صريحة في العلاقة بين الكعبة وموسم الحج وبين التجارة التي فيها قوام الحياة (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ)(30).

قدسية مكة ومكانتها هذه فرضت بعض الوظائف الدينية والاجتماعية لدى أهل مكة الذين شرفوا بها، وهي وظائف متداخلة، فهي اجتماعية باعتبار علاقة الأقوام والقبائل بها ودينية من حيث ارتباطها بالبيت الحرام ورعايته، ومن هذه الوظائف التي أشار القرآن إلى قيامهم بها: النسيء وهو تحديد مواعيد الأشهر الحرم من كل عام بما يتناسب مع مصالحهم(31)، والسقاية وعمارة المسجد الحرام ورعايته(32).

هذه الصورة العامة لواقع مدينة مكة تدل على كونها مدينة تمتلك من مقومات النظام ما يؤهلها لقيادة ما حولها من الحواضر، بل وتنظيم العلاقات واللقاءات بين مختلف القبائل

والوفود القادمة إليها، ولئن كان غامضاً طبيعة النظام الذي كان سائداً فإن هناك إشارات قرآنية عديدة إلى بعض الآليات التي كانت سائدة في إدارة مكة وقيادتها، من ذلك ظاهرة النوادي التي كان يجتمع فيها الناس ويتداولون الشأن العام وقد أشار القرآن إلى ذلك(33)، إضافة إلى العديد من المفردات التي تم تداولها في القرآن والتي تدل على وجود ملامح الشوكة والسلطة والحكم في تلك البيئة، من ذلك: الجند، الإثبات والإخراج من مكة، الملأ، الحبس، السجن، أولوا الأمر..، كل هذه المفردات تدل على مفهوم السلطة وقد استعملت في آيات مكية، ومنها ما هو مباشر يخص أهل مكة ومنها ما يدل السياق على علمهم بمضمونها ومعانيها(34)، ونفس الأمر بالنسبة للقضاء فهناك آيات ومصطلحات – أبرزها مفردة الحكم ومشتقاتها- تدل على وجود نمط من السلطة القضائية تحل النزاعات بين الناس، وكانت تستند إلى التقليد والعرف، ويقوم بها الوجهاء، وتتم بالاختيار(35).

هذا عن المعالم العامة لمكة قبل البعثة، أما الشرائح السكانية التي كانت تقطن في مكة فهناك آية تشير إلى وجود بعض الأجانب إلى جانب العرب(36)، لكن هناك آيات مكية كثيرة(37) تدل على وجود جالية لا بأس بها من أهل الكتاب يعيشون مع العرب في مكة وأكثرهم من النصارى وفيها بعض اليهود(38). أما جذور وتاريخ اليهود في الجزيرة العربية فليس هناك من النصوص التاريخية ما يتحدث عن وجودهم قبل الميلاد، أما بعده فقد ثبتت هجرتهم إلى الحجاز إثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين(39). أما النصرانية فقد دخلت الحجاز عن طريق التبشير والنساك والرهبان الذين قدموا إليها(40)، وقد دخل بعض العرب في النصرانية، أما اليهود فقد كانوا أقلية في مكة وانتشروا في المدينة أكثر ويدل الخطاب القرآني لهم بـ (بني إسرائيل)، على الإطلاق، على الصلة بين معاصري عصر الرسول وأسلافهم وعلى كونهم طارئين على الحجاز وأنهم غير عرب(41).

هذه الجالية الأجنبية المقيمة بمكة بما تحمله من أفكار وعادات، إضافة إلى الوفود السنوية من مختلف المناطق التي تفد إلى مكة في موسم الحج أو القوافل التجارية التي تمر عبر طريقها، كل ذلك سيكون له دوره في التلاقح الفكري الذي من الطبيعي أن يكون له أثره في أفكار وربما عقائد المكيين، وفضلاً عن هذا الجانب فإن لحضور هذه الجاليات دلالة على كون مكة فضاء مفتوحاً وكون المكيين على إحاطة بما يجري في العالم وعلى اتصال دائم بما حولهم، كل هذه المعطيات تؤكد المكانة الحضارية التي كانت تمتاز بها مكة مما أهّلها لاحتضان الرسالة الخاتمة التي ستنطلق إلى العالم المختزل في عالم مكة الأرخبيلي.

لكن المحور الأهم في حياة المكيين هو الأفكار والعقائد التي كانت سائدة قبل البعثة، ولئن كان القرآن المكي يشتمل على بيانها فإن السياق القرآني يعالج هذه الأفكار خارج إطار الزمان والمكان، وليس من الضروري أن تكون الأفكار المطروحة للنقد هي أفكار أهل مكة باعتبار أن الدعوة كانت تنطلق إلى جميع الناس حتى الوفود الذين يردون إلى مكة أو القاطنين خارجها، مما يقتضي اتباع السياق القرآني وتناول تلك الأفكار خارج

السياق التاريخي والجغرافي، ويؤكد أهمية ذلك ما أشرنا إليه سابقاَ من تداخل أفكار أهل البدو مع أهل الحضر دون تمييز.

لهذه الاعتبارات سنتناول الأفكار والعقائد التي كانت سائدة قبل البعثة والتي يشير إليها القرآن وذلك بغض النظر عمن كان يتبناها والمكان والتاريخ الذي كانت منتشرة فيه، المهم حضورها في عصر الرسول.

الأفكار والعقائد/ البيئة الدينية والفكرية قبل البعثة:

يحتل المجتمع الجاهلي مساحة كبيرة من آيات القرآن إذ بلغت الآيات التي تناولته 1575آية، منها 1096 آية مكية و479 آية مدنية، وتشكل عقائد المجتمع الجاهلي نسبة 54% من الآيات، ومعظمها مكي، وقد توزعت القضايا العقدية فيها على ثلاثة محاور: الشرك=514، البعث=282، إنكار الوحي=69(42)، هذه المعطيات العددية إن دلت على شيء فإنما تدل على أهمية تلك المرحلة وضرورة معرفتها لما لها من أثر في تصور الإضافة التي جاءت بها الرسالة الخاتمة، والتركيز القرآني على مجموعة من العقائد المركزية يشير إلى أهميتها في مضمون الرسالة الجديدة.

سنحاول استكشاف المحاور الرئيسية للأفكار والعقائد التي كانت سائدة مستلهمين ذلك من آيات القرآن مع الإحالة على أماكن تفصيلها في كتب اختصت بالموضوع، وسنركز على ثلاثة محاور: الأفكار والعادات العامة وسنجمل فيها ما ساد من عادات وتقاليد اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية بشكل عام، ثم نثني بالعقائد الدينية التي كانت سائدة ونتبع ذلك بالطقوس الدينية المنتشرة.

1- الأفكار والعادات العامة:

يوصف المجتمع الذي سبق البعثة بالجاهلية وهو وصف وارد في القرآن على بعض الجوانب في ذلك المجتمع(43)، فهو وصف نسبي ينطبق على الجانب العقدي وما يرتبط به وبعض العادات الاجتماعية ولا تصح هذه التسمية من الناحية الثقافية(44)، فلم يكن مجتمع ما قبل البعثة كما تصوره الكثير من المصادر مجتمعاً معزولاً عن العالم أو لا يعرف من العلوم شيئاً بل العكس، إذ كان لدى العرب أدب ولغة في غاية التطور، وكانت لديهم معارف بالأنساب والتاريخ والفلك، فضلاً عما تقتضيه الحركة التجارية التي كانت سائدة في المنطقة من علم بالاقتصاد والحساب والكتابة، والدلائل كثيرة على إلمام العرب بالقراءة والكتابة وانتشارها بينهم(45)، هذا التقدم الحضري الذي سبق البعثة يذكرنا بالبيئات التي بعث بها الرسل من قبل والتي كانت تتميز بكونها مجتمعات حضرية متقدمة وربما بلغت شأواً في العلم والتقدم المادي، هذا الجانب المادي عندما يطغى على الجانب الأخلاقي يسود الظلم ويصل بالمجتمع إلى مأزق روحي، فيأتي التدخل الإلهي عبر إرسال الأنبياء لتصحيح مسيرة الناس وردهم إلى فطرتهم والإيمان بالله الذي يقتضي العدل وإعارة الجانب الروحي من حياة الإنسان حقه، فالتقدم المادي لا يستلزم رقياً دينياً أو

روحياً بل ربما كان عائقاً أمام انتشار القيم والمثل التي يحافظ عليها قلة في المجتمع، وهذا ما كان عليه حال المجتمع الذي سبق بعثة الرسول.

فمن العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر التمييز ضد المرأة المتمثل في مختلف الجوانب المتعلقة بها من طرق النكاح والطلاق إلى الإرث والوأد، وإن كانت هناك شريحة من النساء في نفس المجتمع تأخذ دوراً اجتماعياً متميزاً ينافس الرجل كالتجارة والمشاركة في الدفاع عن المجتمع وقيمه، وقد حكى القرآن مناهضة نماذج من نساء ذلك العصر الدعوة الجديدة وإيذائهن الرسول(46)، وهذا التفاوت في دور المرأة المتراوح بين كونها سبَّة وعاراً ومتاعاً وبين ممارستها لدور قيادي في المجتمع يحمل إحدى دلالتين: إما تنوع الموقف من المرأة واختلافه بين الحضر والبدو أو بين القبائل أو بين المناطق أو بين أصناف من النساء في المجتمع الواحد، وقد حكى القرآن جميع الصور التي كانت موجودة بإجمال دون تفصيل مع تقويمها وتصحيحها ودعم ما هو صواب وإيجابي منها، والدلالة الثانية المحتملة أن المرأة كانت تتعامل مع تلك القيم التي تضطهدها على أنها أمر واقع وقانون اجتماعي ينبغي الرضا به وقبوله دون أن يمنعها من ممارسة دور ما يسمح به المجتمع، وهذه العادات المتعلقة بالأحوال الشخصية والعلاقة مع المرأة إنما هي عادات اجتماعية لا ترتبط بالدين الجاهلي إلا في بعض الجوانب منها سنشير إليها لاحقاً.

الجانب الآخر الذي كان سائداً من العادات والذي كان يحمل أكثر من وجه من الناحية القيمية هو ظاهرة الولاء والعصبية بين أفراد القبيلة ومن يدخل في حلفهم، وكان هذا الجانب يمثل رابطة العقد السياسي الذي ينظم المجتمع ويقوده ويضمن فيه الأمن والحفاظ على الحوزة ووحدة القبيلة، وقد أورثت هذه العادة بعض الجوانب الإيجابية التي استثمرها الإسلام ورعاها مثل: التآلف والتآزر ومساعدة الضعيف والجوار..، لكن الجانب الخطير لهذه العادات هو ما تورثه العصبية العمياء من ظلم واعتداء وسفك للدماء وذلك بالثأر ومناصرة القبيلة سواء كانت على حق أو باطل، فجاء الإسلام يصحح هذه المظاهر ويقومها(47).

إضافة إلى هذه العادات كانت ظاهرة الطبقية والرق منتشرة عندهم، لكن العتق كان مكرمة يمتدح بها ممارسوها وقد حارب الإسلام هذه الظاهرة وشجع على مكرمة العتق التي كانت منتشرة كفضيلة بين الناس(48).

هذه هي أهم العادات التي كانت سائدة أوردنا مجملها من غير تفصيل لأن تفاصيلها كثيرة وما أحلنا عليه من مراجع يغني عن التكرار إنما أردنا الإشارة إلى الطابع المزدوج من الناحية القيمية لهذه العادات، وكيف تعامل القرآن معها مستثمراً الإيجابي منها ومصححاً للجانب المظلم منها، وهذا المسلك القرآني مع العادات سيتكرر مع الجانب الديني الذي سنتناوله في الفقرة التالية.

2 - الفكر الديني قبل البعثة:

تطالعنا آيات القرآن بأسماء أديان كانت معروفة ومتداولة لها معتنقوها في ذلك العصر وهم: اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والمشركون(49)، وقد كان لهذه الأديان حضور وتواصل بين أتباعها، مما يجعل من الطبيعي أن يكون بينهم حوار وتأثر متبادل، وسنعرِّف بكل فريق منهم في إطاره الزماني والمكاني.

اليهود والنصارى: أشرنا قبل قليل إلى وجود جالية من اليهود والنصارى في مكة، وكان لهم حضور أكبر في المدينة، وقد اعتنق بعض العرب النصرانية، وكان لبعضهم مكانة متميزة في المجتمع، وكانت تجري بينهم وبين المشركين حوارات وجدل في قضايا مختلفة، وقد تأثر بهم العرب وتعلموا منهم بعض الفنون والقصص وأخبار الأنبياء والأمم الغابرة فكان لعلمهم بالكتاب تميز على العرب الذين كانوا ينتظرون نبياً يبعث فيهم بينما كان أهل الكتاب يدَّعون أن النبي سيبعث منهم(50)، وكان لهم تأثير في أفكار العرب الدينية لكن دون أن يتمكنوا من اكتساح الوثنية الجاهلية ففضلاً عن كون اليهودية ديانة قومية لا تسعى لإدخال الناس فيها فإن أفكارها لا تناسب بيئة العربي الذي يسعى للحصول على الغنائم من الحروب بينما تحرم اليهودية الانتفاع بها، وكذلك المسيحية لم تكن لتقنع العربي الذي يحب الثأر أن يدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن كما تدعو المسيحية(51)، لكن ذلك لم يمنع من انتشار النصرانية بين بعض القبائل العربية(52)، وقد كان لأفكار اليهود والنصارى أثر في تطور الفكر الديني العربي الذي تقدم عليهم أحياناً كما سيتم الإشارة إليه، هذا ويتميز النصارى على اليهود بحسن علاقتهم مع المسلمين وتعاملهم السلمي مع الدعوة الجديدة بخلاف اليهود الذين قاوموا الدعوة ومارسوا مختلف ألوان المكر والدس في محاربة الرسول والدعوة(53)، ورغم ذلك كان هناك فريق من اليهود والنصارى آمنوا واتبعوا الرسول(54)، ويحفل القرآن بما جرى من جدل بين الرسول واليهود والنصارى وذلك في إطار أداء الرسول مهمته في التصديق والهيمنة لما بين يديه من الكتاب(55).

المجوس: يقصد الأخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة، وقد وردت لفظة المجوس في القرآن علماً لدين(56)، فدل على وقوف أهل الحجاز على خبرهم ومعرفتهم بهم، ولا يستبعد وجود نفر منهم في مكة والمدينة والطائف وغيرها، ربما وجدوا عن طريق التجارة أو الرقيق، ولم يرد دخول قبائل عربية في المجوسية ولهذا كان معظم مجوس جزيرة العرب من الفرس المقيمين في البحرين واليمن وعُمان(57)، ويروى أن المجوسية كانت في تميم(58). وأياً ما يكن الأمر ففي ذكرهم دلالة على صلة العرب بالأديان الشرقية مما سيكون له أثر في أفكارهم وعقائدهم.

الصابئون: ذُكر الصابئون في القرآن ثلاث مرات، وقد اتجه معظم المفسرين إلى جعل المقصود بهم ديانة الصابئة المختلف في عقائد أصحابها بين قائل أنهم من المجوس أو أنهم عُبَّاد الملائكة أو الكواكب أو الشمس، أو أنهم فريق جمع بين مختلف الأديان، ومن هذه العقائد ما طرأ بعد الإسلام(59)، وكل هذه التفسيرات مستبعدة نظراً لذكرهم مع المجوس وتصنيفهم مع اليهود والنصارى ذوي الأصل التوحيدي مما يرجح كونهم أقرب إلى

التوحيد، إضافة إلى أن الكلمة متداولة بين العرب بكثرة، وتدل لغوياً على الميل والانحراف(60)، وقد استعملها العرب لمن انحرف عن دين القوم وعقائدهم، وبهذا المعنى أطلقوها على من أسلم واتبع الدين الجديد. وكانت تطلق على من ترك عبادة الأصنام، كما كانت تستعمل في مقام الحنفاء، وقد أطلقت على الرسول وأصحابه، مما يرجح إطلاقها في عرفهم على الموحدين الذين نبذوا الأصنام قبل البعثة وانحرفوا عن دين قومهم، وهم في التعبير القرآني غير المسلمين وغير اليهود والنصارى وغير المجوس كما إنهم معهودون بين العرب، وقد سُلك العرب المسلمون في زمرتهم - رغم اعتراض المسلمين على التسمية - لاشتراكهم في الاعتراض على دين قومهم وانحرافهم عن تقاليده وقولهم بالتوحيد، ولعلهم هم نفس الحنفاء الذين كانوا في الجاهلية(61)، ولا يزال مفهوم الصابئين من المفاهيم الشائكة التي حيرت المفسرين والباحثين قديماً وحديثاً(62)، وأرى أن هذه التسمية القرآنية ربما لتميز الحنفاء الذين أسلموا من الذين استمروا منهم على ما هم عليه ولم يدخلوا في الإسلام.

الحنفاء: عرف الحنفاء بين المسلمين بأنهم من كانوا على دين إبراهيم من الجاهليين، فلم يشركوا بربهم أحداً ولم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية، ولم يقبلوا بعبادة الأصنام ديناً بل سفهوا تلك العبادة والقائلين بها، وكانت لهم عادات خاصة تميزوا بها. وعلى العموم فإن المصادر لا تساعد على رسم صورة واضحة للحنفاء، فما ورد في القرآن يؤكد أنهم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا من المشركين، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكان قدوتهم إبراهيم. أما المصادر التاريخية فإن معظم ما ورد فيها عنهم يخص الناحية الأخلاقية أكثر مما يخص الناحية الدينية، وما يمكن ملاحظته أن الحنفاء كانوا على رأي واحد لا كطائفة واحدة، فقد كانوا نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة، إنما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام وفي الدعوة إلى الإصلاح(63)، ويرى البعض أن التيار الحنيفي كان يحمل مشروعاً دينياً سياسياً على مستوى الجزيرة العربية لكن الإسلام قام بالطموحين فانتفى الشرط التاريخي لظاهرة الحنفاء(64).

خلصنا مما سبق إلى أن ما يجمع الصابئة والأحناف هو الأصل التوحيدي ونبذ عبادة الأصنام واتباع إبراهيم، واستمرار الحنفاء عبر الإسلام وانفراد الصابئين ببقائهم على عاداتهم وما كونوه من تيار دون الدخول في الإسلام، وما يشير إليه ذلك التيار هو تطور الذهنية الدينية عند بعض العرب قبل الإسلام وشعور شريحة منهم بضرورة البحث عن الدين الحق الذي يتلاءم مع العقل والفطرة، ولم تفلح العقائد السائدة في إقناعهم فطوروا عقيدة خاصة بهم تنسجم مع فطرتهم، هذا الطابع الذي كان سائداً يحمل الطابع الإبراهيمي وهو لا يمت بصلة إلى التفكير اليهودي المسيحي الذي نشأ مع الحركة النبوية الإسرائيلية، ومجرد انتشار الفكر الكتابي بين بعض العرب لا يدل على صبغة يهودية أو مسيحية للحنفاء وإلا لكانوا تهودوا أو تنصروا بل كانوا على مسافة من الكتابيين ومن الدين الجاهلي الذي كان سائداً قبل البعثة إلى أن جاء الإسلام منسجماً مع تطلعاتهم(65).

الدين الجاهلي: من يتتبع ما ورد عن عقائد الجاهليين في القرآن يجد أنها من التنوع والكثرة والاختلاف ما لا يحيط به اسم دين أو عقيدة، وهي عقائد متشابهة في بعض الأشياء والرموز ومختلفة في البعض الآخر، لكن القرآن يورد مسمى واحداً يتكرر مع ذكر مختلف هذه العقائد هو مفردة الشرك ومشتقاتها، بحيث يمكن اعتبار هذه التسمية تعبيراً عن العقيدة العامة التي كانت تسود في بيئة عصر البعثة، وأنها لا تعني نوعاً محدداً من العقائد، وأنها كانت عامة يمكن أن ينطوي فيها عقائد متنوعة، وقد تكون أحياناً مختلطة ومتداخلاً بعضها مع بعض، يجمع بينها ضابط عام هو إشراك ما دون الله مع الله أياً كان هذا الدون(66)، ولئن كان تعبير الشرك علماً على الدين الجاهلي العام والمتنوع فإن الطاغوت كما تشير السياقات هو علم على الآلهة المزيفة لعقيدة الشرك(67)، ونظراً لهذا التنوع في العقائد والعادات والشعائر والطقوس التي تندرج تحت وصف الشرك والتي أشير إليها في القرآن سنتناولها ضمن تصنيف جملي نستكشف من خلاله التصورات والعقائد التي تشمل: الإله، الغيب، الطقوس والشعائر، المحرمات.

تصور الإله عند الجاهليين: يحفل القرآن بذكر عدد من أسماء الآلهة الجاهلية التي كانت منتشرة في مكة أو خارجها والتي كان يعبدها العرب، كما ورد ذكر الأصنام والأوثان والأنصاب والأزلام وغيرها مما كان يعبده الجاهليون، ولم يقتصر أمر الشرك على المصنوعات المادية فقد ذكر عبادتهم للملائكة والجن والشمس والكواكب والدهر وغير ذلك(68)، ولم تحدد جغرافية هذه الآلهة وأماكن انتشارها وتاريخها إلا أنها تدل فيما تدل عليه من ورودها مجملة على التنوع الذي كان سائداً، وربما يكون مرده حصول تطور في الفكر الديني العربي أدى إلى الانتقال في تصور الإله من معبودات مادية إلى رؤية تجريدية، وذلك بفضل الاحتكاك والتعرف على عقائد أهل الكتاب والبيئات المحيطة بهم، إذ يلاحظ من خلال المصادر التاريخية أن العربي توهم الحياة في كل شيء فكان يرى في الجماد والحيوان شخصية خاصة بها، ورغم قلة المعلومات فإن هناك إشارات عديدة تذكر عبادة عديد العرب للحيوانات وكذلك الجماد والأحجار والأشجار.. وتحت تأثيرات داخلية وخارجية اتخذ التصور الديني العربي صيغة أكثر تجريداً فبرزت عبادة الكواكب والأجرام السماوية(69)، وفي خطوة متقدمة نجد عبادة الملائكة والجن كمخلوقات غيبية غير مدرَكة.

وأياً تكن صورة الشريك فإن الآيات القرآنية(70) تشير إلى قدم إيمان العرب بالله وأنهم كانوا يعتقدون أنه خالق السماوات والأرض ومدبّر الكون وأنه الملجأ وأنه يكشف الضر وأنه الذي يرسل الأنبياء وينزّل الملائكة ويوحي بالكتب، لكنهم رغم تطور هذا الفكر التجريدي لديهم عن الله لم يكونوا قد وصلوا إلى استساغة الاكتفاء بالإيمان بالله إيماناً غيبياً من غير رمز مادي، لذلك كانوا يعتقدون أنه هو الذي أمرهم بعبادته والتقرب إليه عن طريق الشركاء أو الشفعاء أو الأولياء أو الشهداء حسب طريقة تصورهم للشريك ودوره في العلاقة مع الله. وهذه التنويعات في التسميات والأدوار تشير إلى اختلاف وتطور في درجات التفكير الديني بينهم(71)، هذا التنوع يقودنا إلى أرقى ما تطور إليه

الفكر الديني العربي وهو الإيمان بالغيب.

الغيب عند العرب: كان للفكر الكتابي دور في إدخال أفكار عن عالم الغيب في بيئة كانت تعير المحسوسات أهمية في تفكيرها، لكن التطور الذي وصل إليه أصحاب هذه البيئة لم يكن ليسمح بتبني تلك الأفكار كما هي لاسيما ما يخص منها تصور الله، ولعل المقارنة بين تصور النصارى لبنوة الإنسان لله وما تبناه المشركون العرب من فكرة البنوة لله يشير إلى التأثر من جهة والمحاكمة من جهة أخرى، فإذ أدرك الجاهليون وجود كائنات غيبية كالجن والملائكة وهي في تصورهم أقرب إلى الله من حيث طبيعة تصورها التجريدي، وكان الأنسب في ذهنيتهم أن يكون اتخاذ الله للولد من الملائكة(72).

إذاً كان العرب يؤمنون بوجود الملائكة ولهم تصور خاص عنهم وعن صلتهم بالله وأن الله كان يرسلهم إلى من يشاء من عباده(73)، وكانوا يتصورونهم بنات وأن الله اتخذ منهم ولداً -كما أشرنا-، وقد عبد بعض العرب الملائكة وقد ورثوا هذه العقيدة عن الآباء(74)، وربما تطورت لتصبح الملائكة مجرد شفعاء، وباعتبار الملائكة غير ماديين ربما اتخذوا من الأصنام رموزاً وهياكل للملائكة الذين هم في السماء(75)، ولعل ما ورد في القرآن من أوصاف للملائكة وعلاقتهم بالبشر وبصيغ تقريرية يدل على تبني العرب لهذه التصورات عنهم فكان السياق القرآني تأكيداً لتصورهم سموَّ الملائكة وغيبية عالمها.

ولا- يختلف الأمر كثيراً بشأن تصور العرب للجن إذ جعلوا بينهم وبين الله نسباً(76)، وجعلوا منهم شركاء لله(77)، وكانت عقيدتهم بالجن واسعة النطاق، كما كانوا يؤمنون بصلات بينهم وبين الإنس، وعبادتهم للجن كانت بدافع الخوف منهم إذ يرون فيهم عناصر شر وفزع بخلاف الملائكة الذين كانوا يرون فيهم عناصر خير وبر يستشفعون بهم(78)، وقد كان للجن في أذهان العرب حيّز كبير من حيث قوتهم وقدرتهم على الخوارق حتى ذكروا في معرض تحدي القرآن وتقرير عجز الإنس ولو استعانوا بالجن(79).

وليس هناك ما يشير إلى تصورهم لماهية الجن لكن ما ورد في القرآن من وصف المشركين الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه مجنون، ربما يعني قصدهم كون ما يرد إليه إنما هو من الجن إذ لا- يمكن أن يكون منطقياً في تصورهم وصف الرسول بأنه مجنون بمعنى فقدان العقل إذ عرف بينهم بالاتزان والحكمة، فيكون قصدهم أن ما يدعيه من الوحي ليس من الملائكة الخيرين الذين طلبوا منه إثبات إنزالهم عليه، وما يؤيد هذا المعنى للجنون إجابة القرآن على تهمة الرسول بالجنون بأن القرآن تنزيل من الله بواسطة الملك(80)، ولاسيما وأن العرب كانوا يتصورون اتصال الجن مع الإنس لاسيما الشعراء والكهان والسحرة(81)، هذا ومعظم ما ورد في القرآن عن الجن وإبليس والشيطان لاسيما ما ورد بأسلوب تقريري في سياق العبرة والعظة والتذكير يشير إلى كونه مما هو معلوم عند العرب(82).

هذا ولعالم الجن دور هام في حياة العرب إذ كانوا في تصورهم هم مصدر التنبؤ والكهانة والسحر والشعر، ونظراً لما يحتله من يمارس هذه الأشياء من مكانة فقد كانت

مصدر تنافس بين القبائل مما ساعد على انتشار هذه الظاهرة(83)، وهذا الجانب من الحياة العربية كان كأي جانب آخر عرضة للتطور والتغير، وما كان عليه الحال قبل البعثة هو نتيجة لتطور مستمر دام آلاف السنين قام به رجال من أهل الجاهلية إما بشعور ذاتي أو بتأثر خارجي من خلال اتصال متعدد الأشكال مع العالم الخارجي، وهذه المقاربة العربية للغيب ومحاولات المتنبئين تذكرنا بتاريخ النبوة عند العرب وما ذكرهم به القرآن من نبوة هود وصالح باعتبارهم معروفين من قبلهم(84)، هذا وما يحمله العرب من تصور للنبوة والنبي وما ينبغي أن يكون عليه من تأييد وقدرات خارقة كان مما دعاهم لرفض نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- التي لم تأت بالخوارق التي سمعوا عنها مما جاء به الأنبياء من قبل(85).

هذه التصورات للآلهة وللغيب على ما ينطوي عليه من تنوع أورثت عندهم تطلعاً لإرضائها والتقرب إليها خوفاً أو رغبة، فكانت لديهم بعض الطقوس و العادات والمحرمات.

الطقوس والمحرمات: كل عقيدة تفرض على معتنقيها طقوساً وتعاليم تميزها عن غيرها يفرضها مصدر الدين أو يتم تشكلها عبر الزمن وقد تتأثر بالعقائد الأخرى أو الموروث الاجتماعي كما يمكن أن تتطور العادات والمواسم لتصبح طقوساً دينية.

تشير الآيات القرآنية(86) إلى وجود طقوس الصلاة بين الجاهلين لكن ليس هناك ما يدل على طريقة هذه الصلاة(87)، وتشير آية فرض الصوم إلى قدم هذه الفريضة على من سبق من أهل الكتاب، ولا يستبعد بعض المؤرخين وجودها بين العرب أو كونها من بقايا شريعة إبراهيم(88)، وكذلك الاعتكاف كعبادة دينية ورياضة روحية كان ممارساً قبل البعثة وقد أشار القرآن إلى الاعتكاف في البيت الحرام(89)، واسم يوم الجمعة يدل على اجتماعهم فيه وربما اعتباره مشتملاً على خصوصية دينية(90)، أما عبادة الحج فلا توجد أخبار مدونة عن مناسكه وشعائره عند الجاهلين(91) لكن الآيات القرآنية(92) صريحة في كونها من العبادات التي كانت سائدة قبل البعثة ومنذ عهد إبراهيم(93)، بل إن مكة ارتبطت بفريضة الحج التي أصبحت مقوماً من مقومات مكانة مكة، أما عن كيفية الحج عندهم فقد أشارت الآيات إلى وجود أشهر خاصة بالحج وكانوا يتلاعبون بها، ولعل يوم الحج الأكبر الذي وردت فيه البراءة من المشركين هو يوم عرفة إذ التسمية معروفة عندهم وقد جاءت البراءة في نفس اليوم، وكذلك شبّه القرآن بعث الجاهلين بعد الموت بالتزامهم النصب مما يشير إلى كونهم يلتزمونها في أثناء طوافهم(94)، كما أمروا بترك ما كان في الجاهلية والإفاضة من حيث أفاض الناس، وكذلك السعي والهدي والقلائد وحرمة الصيد مما كان سائداً في مراسم الحج في الجاهلية، وبهذه الصورة يكون الإسلام قد صحح الحج الذي كان وخلصه من شوائب الشرك والوثنية وما لا يتلاءم مع قيم الإسلام(95)، هذا ومن الشعائر التي كانت سائدة في الجاهلية كما هو الشأن في سائر الأديان تقليد القربان سواء ما كان متصلاً بهدي الحج أو مستقلاً عنه(96)، وقد وصل ببعضهم تقديم القربان البشري وهو أحد أسباب وأد البنات عندهم وتشير بعض الآيات إلى

اقتران ذلك بالشرك(97)، وبذلك تكون هذه الشعيرة من بقايا الشعائر الدينية التي كانت سائدة في القديم(98)، هذا وبالإضافة للشعائر كانت لدى الجاهلين بعض المحرمات منها ما هو مرتبط بالحج كما أشرنا فيما يخص الأشهر الحرم ومنها ما هو مرتبط بالقربان أو أنواع الحيوان وما يؤكل منها وما لا يؤكل، وقد أشار القرآن إلى ما ابتدعوه من هذه المحرمات(99) وما أطلقوه عليها من أسماء كالسائبة والحام والوصيلة والبحيرة(100)، وقد اختلف كثيراً في تفسير هذه الأسماء ولا يمكن الجزم بمعناها لكن الأهم هو ما تشير إليه من أن الجاهليين كانوا يراعون هذه الأمور مراعاة شديدة ولهم فيها قواعد وأحكام ترجع إلى تقاليد قديمة حافظوا عليها إلى أن منعها الإسلام(101).

إن ما أوردناه من كيفية إشارة القرآن لما كان سائداً من أفكار وعقائد وأعراف وعادات وتصحيحه لها وإقرار ما كان صحيحاً منها، بل واستعماله لمصطلحات كانت سائدة وتطويرها، حتى إن أهم مصطلحات الدين الحلال والحرام كانت سائدة قبل الإسلام، يدل على وجود فكر ديني وقانوني كان يحكم مسيرة العرب قبل الإسلام(102)، وعلى الصعيد الأخلاقي فقد كانت المروءة عند الجاهليين كالدين عند المسلمين فهي أقصى ما يكون من أخلاق في الرجل فكان لها دور في تكريس الشجاعة والمساواة والأريحية والكرم وغيرها من القيم الأخلاقية التي أقرها الإسلام(103).

هذه التفاصيل القرآنية التي أوردناها حول المجتمع العربي قبل الإسلام لاسيما فيما يخص الجانب الديني تدل على أن العرب لم يكونوا متفقين على عبادة موحدة ولم يكونوا يعبدون إلهاً واحداً أو أصناماً معينة كما لم يكونوا جميعاً على صورة واحدة في التفكير الديني، فلم يكن الانحطاط الديني عاماً للجميع(104)، فقد كانت الجزيرة العربية تمثل اختزالاً لما كان يسود الكون من أفكار وأديان في العالم آنذاك وذلك ما أهَّلها لتكون مهداً لرسالة عالمية تخاطب العالم وتخرج من وسط تجمُّع له صلة بما يسود الفكر الديني في عصرها.

هذه المقاربة إن بدت موغلة في التاريخ فإن جوهرها وما طرحته من رؤية حول تلك الفترة له صلة بحاضر العالم اليوم، فلئن ساد في الفكر الإحيائي في القرن الماضي وصف العالم بالجاهلية، وبدا ذلك متناقضاً من ناحيتين: المفارقة في المقارنة بين زمنين مختلفين ومفارقة مضمون المفهوم، فإن ما تفيده مقاربتنا أن الإنسان أحوج ما يكون للدين عندما يكون متقدماً وعالماً ومتطوراً، والأنبياء إنما كانوا يبعثون في بيئة حضرية متقدمة، والقيم الأخلاقية يحتاجها الغني أكثر من الفقير والقوي أكثر من الضعيف، لذلك فإن عالم اليوم المتقدم والدول المتعملقة على أكتاف الضعفاء إنما تحتاج إلى بعث جديد يحيي فيها قيم الإنسانية التي جاء بها الأنبياء ويفتح أفق الإنسان لتصحيح التاريخ وتوجيهه نحو التي هي أقوم كما وجهته الرسالة الخاتمة عندما بعث محمد صلى الله عليه وسلم في أم القرى، فتحول الكون إلى قرية اليوم يشبه أحوال مكة أم القرى عند البعثة حيث امتزاج الأفكار والأديان والأعراق ومحورية العالم حولها.

ويبقى التاريخ مصدراً حضارياً وملهماً أساسياً لمن يبتغي رؤية المستقبل رؤية بعيدة، فحاضر اليوم ليس إلا نتيجة ما فعل بالأمس والغد ليس إلا نتيجة ما نفعله اليوم، (وَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً).

****

الهوامش

*) باحث وأكاديمي من سورية.

[1]- انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام:ج5، ص11-19، وقد أشار إلى عدم وجود أي نص من تلك الفترة يتعلق بأمور دينية مباشرة، كما لا توجد كتب كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهلية، وانظر أيضاً: صالح أحمد العلي، تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص205، دومينيك سورديل، الإسلام، ص24.

2- استطاع محمد عزة دروزة من خلال ما ورد في القرآن أن يبني صورة متكاملة عن بيئة عصر الرسول عند بعثته وذلك بتتبع الآيات المتعلقة بنقد أفكارهم وما ورد من تشريعات تصحح أو تنسخ ما كانوا عليه، وكذلك من خلال المفاهيم والمصطلحات القرآنية المستعملة بلغتهم في سياق يدل على إلمامهم بمضامينها، وقد أسمى كتابه المتميز في موضوعه (عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة) وقد كتبه عام 1940م ونشره أول مرة عام 1946م، وأعاد تنقيحه ونشره في طبعة ثانية عام 1964م وقد صدر عن دار اليقظة العربية في بيروت وسنعتمد على هذه الطبعة في الإحالة عليه.

3- انظر: صالح أحمد العلي، م.س، ص206.

4- انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص7.

5- قام بعض الباحثين بالخلط التام بين الحضر والبدو حتى في العناوين، فاعتبر كل ما ورد من عادات ونظم سابقة للإسلام نظماً بدوية، ودرسها تحت هذا العنوان، ولاحظ أن أثرها استمر في الإسلام وعبر التاريخ (صالح أحمد العلي، تاريخ العرب القديم، ص 157 وما بعدها)، ولعل مفهوم القبيلة الذي كان سائداً في الحضر والبدو أدى إلى هذا الخلط.

6- انظر: خليل أحمد خليل، جدلية القرآن، ص60.

7- انظر: دومنيك سورديل، م.س، ص51.

8- ورد ذكر الأعراب في القرآن عشرة مرات.

9 -(مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا

بِأنفسهِمْ عَنْ نَفسهِ) التوبة، آية120.

10- انظر: سورة التوبة، الآيات 97-12. الفتح، الآيات 11-19. الحجرات، آية 14.

11- انظر حول الأعراب في القرآن وطبائعهم، محمد عزة دروزة، م.س، ص44-49.

12- انظر: عبد الحليم محمود، القرآن والنبي، ص 56.

13- انظر: هشام جعيط: الشخصية العربية الإسلامية، ص138، وله أيضاً في السيرة النبوية، ص28، كارين أرمسترونغ، الله والإنسان، ص143.

14- انظر: كارين أرمسترونغ، م.س، ص144.

15- انظر: دومنيك سورديل، م.س، ص54.

16- انظر:الحاج محمد وصفي، الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص340.

17- انظر: سورة البقرة، الآيات: 126- 129.

18- (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى للْعَالَمينَ) آل عمران 96.

19- انظر: عبد العزيز كامل، القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، مجلد:12، عدد:4 /1982 ص:21.

20- انظر: صالح أحمد العلي، م.س، ص129.

21- (وَكَذَلكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لتُنْذرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فيهِ فَريقٌ في الْجَنَّةِ وَفَريقٌ في السَّعير) الشورى 7. والقرية هي مجتمع القوم الذين يبعث إليهم الرسل ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام (انظر: الرازي، التفسير، ص 14-150).

22- يرى أبو حيان أن من حولها يشمل جميع الأرض وليس ما يخص جزيرة العرب، انظر له: البحر المحيط، ص4-179.

23- هذا ما تشير إليه سورة النصر:(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّه وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دين اللَّه أَفْوَاجًا(2)فَسَبِّحْ بِحَمْد رَبِّكَ وَاسْتَغْفرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(3)).

24- انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص32.

25- انظر: صالح أحمد العلي، م.س، ص131- 138.

26- (لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ(1)إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(2)فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ).

27- انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص34 وما بعدها.

28- أشار القرآن إلى ذلك في سورة الجمعة وموقفهم عندما تركوا الصلاة لقدوم التجارة (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(11))، وهذا يدل أيضاً على استمرارية التجارة بينهم بعد الهجرة لأن سورة الجمعة مدنية.

29- يرجع تاريخ مكة إلى عهود قديمة، فقد ذكرها بطليموس باسم مكرابو أي المقدسة مما يدل على قدم قدسيتها (انظر: صالح أحمد العلي، م.س، ص138) كما أن هناك آيات كثيرة تدل على قدم حرمة مكة (انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص314).

30- العنكبوت: 67، القصص: 57، المائدة: 97.

31- انظر:صالح أحمد العلي، م.س، ص 148 وما بعدها، وقد أشير إليه في سورة التوبة: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(37)) وحرمة الأشهر الحرم قديمة عند العرب. انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص344-345.

32- انظر:صالح العلي، م.س، ص150 وما بعدها، وقد أشير إلى ذلك في سورة التوبة: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(19)).

33- انظر: صالح العلي، م.س، ص146، ومحمد عزة دروزة، م.س، ص357، (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ(15)نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(16)فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ(17)سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(18)كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(19)) العلق.

34- انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص357 وما بعدها.

35- انظر حول ما يدل على ذلك من القرآن: محمد عزة دروزة، م.س، ص372 وما بعدها.

36- انظر: دروزة، م.س، ص157 وما بعدها والآية في المشار إليها: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقولونَ إنّمَا يُعَلمُهُ بَشَرٌ لسَانُ الذي يُلحدُونَ إليْه أعْجَميٌّ وَهَذا لسَانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ(103)) النحل.

37 ـ انظر مثلاً: الأنعام:20-114، الأعراف:157، يونس:94، الرعد:36 -43، النحل:43، الإسراء:107-108، مريم:34-37، الحج:34، القصص:52-55، العنكبوت: 46-47، الزخرف:57-59 63-65.

38 ـ انظر حول معالم أهل الكتاب في مكة من خلال الآيات محمد عزة دروزة، م.س، ص164-165، 169-171.

39 ـ انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص6-10.

40 ـ انظر: م.س، ص6-55.

41 ـ انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص172، 177، ولا يمنع ذلك كون بعض اليهود في الحجاز آنذاك من الأميين الذين اعتنقوا اليهودية، ولم يكن لهم علم بكتابها إلا أماني عن طريق الأحبار، وهم فيما نرى من أشارت إليهم الآية: (وَمنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلمُونَ الْكتَابَ إلاَّ أَمَانيَّ وَإنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ) البقرة:78.

42 ـ انظر: نبيل العلاني، المجتمع الجاهلي من خلال القرآن الكريم، ص83، أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة – المعهد الأعلى لأصول الدين – تونس 1996.

43 ـ الظن بالله ظن الجاهلية / آل عمران 154، حكم الجاهلية / المائدة 50، تبرج الجاهلية/الأحزاب 33، حمية الجاهلية/ الفتح 26.

44 ـ انظر: خليل أحمد خليل، جدلية القرآن، ص60، هذا ومفهوم الجاهلية المستخدم في القرآن مستمد من الجهل بمعنى السفه والطيش والإعراض وليس من الجهل الذي هو ضد العلم، فهي جاهلية مقابلة للحلم (انظر: عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، ص146- 150).

45 ـ انظر حول ما ذكر: محمد عزة دروزة، م.س، ص438-483، نبيل العلاني، م.س، ص418-585، ولا تلازم بين عدم انتشار الكتابة آنذاك وبين عدم انتشار العلوم، انظر: إبراهيم أنيس، دلالات الألفاظ، ص189، 192 وما بعدها، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص17/437-438.

46 ـ ذكر القرآن امرأة أبي لهب في سورة اللهب، وحول وضع المرأة والعادات والأحوال الشخصية التي كانت سائدة انظر: نبيل العلاني، م.س، ص344 وما بعدها، محمد عزة دروزة، م.س، ص219-267.، صالح أحمد العلي، م.س، ص185، 171-

.186

47 - حول ظاهرة العصبية والقبلية والولاء انظر: دروزة، م.س، ص268-304، العلاني، م.س، ص384-404، صالح العلي، م.س، ص187-196.

48- انظر: دروزة، م.س، ص379-387، العلاني، م.س، ص405-427.

49 - البقرة:62، المائدة:69، الحج:17، ومادة الشرك في القرآن متواترة بما يغني عن العزو إليها.

50 - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(89)) البقرة.

51- انظر: حسين الحاج حسن، حضارة العرب في عصر الجاهلية، ص181-184.

52- حول انتشار المسيحية بين العرب انظر كتاب المسيحية العربية وتطوراتها لـ:سلوى بلحاج صالح العايب.

53 - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(82)) المائدة.

54- (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(157))الأعراف.

55 - حول انتشار اليهود والنصارى بين العرب قبل البعثة وعلاقتهم معهم كما يمكن استباطها من القرآن انظر: محمد عزة دروزة، م.س، ص157-217، 720-791.

56- الحج:17.

57- انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص6/284-285.

58- انظر: م.س، ص287، عبد الحليم محمود، القرآن والنبي، ص49.

59- انظر حول تفسير الصابئة: الطبري، التفسير، ج1، ص318 وما بعدها، ابن كثير، التفسير، ج1، ص105، ابن الجوزي، زاد المسير، ج1، ص91-92.

60- انظر: ابن منظور، لسان العرب: ج1، ص107-108.

61 - انظر: جـواد علي، م.س، ص 310-313، محمـد عزة دروزة، م.س، ص697-702، صالح العلي، م.س، ص329-330.

62 - يصل عبد الرحمن بدوي بعد مناقشته ونقده أقوال مختلف المستشرقين في تفسير الصابئين إلى أن هذه الكلمة تكاد تكون لغزاً ميئوساً منه، انظر: له، الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص85-90.

63 - انظر حول الحنفاء: جواد علي، م.س، ج5، ص56-59 و 370 وما بعدها، ج6، ص289 وما بعدها، عماد الصباغ، الأحناف، دروزة، م.س، ص704 وما بعدها.

64- انظر: عماد الصباغ، م.س، ص100.

65- انظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص117.

66- انظر: دروزة، م.س، ص534-535.

67- م.س، ص582.

68 - انظر حول آلهة العرب: دروزة، م.س، ص563-588 و صالح العلي، م.س، ص207-232 و حسين الحاج حسن، الأسطورة عند العرب في الجاهلية، ص120 وما بعدها و نبيل العلاني، م.س، ص124-192 و جواد علي، م.س، ج5، ص65-81.

69 - انظر: محي الدين لاغة، الآلهة والأصنام العربية قبل الإسلام، ص27-28 شهادة الكفاءة في البحث – كلية العلوم الاجتماعية – جامعة تونس الأولى 1998.

70 - انظر: الأنعام:148، النحل:35، المؤمنون، ص84-89، العنكبوت:61، الزخرف، ص30-87.

71 - انظر حول تصور العرب لله: دروزة، م.س، ص661 وما بعدها، وانظر أنواع الشرك كما تشير إليها الآيات: دروزة، م.س، ص535-555.

72 - انظر الآيات التالية: الأنعام:100، يونس:68، الكهف:4-5، النحل:57، الصافات:149-157، الأنبياء:26-29، الزخرف:47-50 ' وانظر حول دلالة الآيات على ما أشرنا إليه من المقارنة مع فكر النصارى وتطور الفكر العربي عليه: دروزة، م.س، ص558-562.

73- انظر: الأنعام:8، هود:12، الحجر:6-7، الفرقان:7.

74- انظر: سبأ: 40-41، الزخرف:22.

75- انظر: دروزة، م.س، ص599.

76- انظر: الصافات:158.

77- انظر: الأنعام:100.

78- انظر: دروزة، م.س، ص624.

79- انظر: الإسراء:88، النمل:39، الصافات:6-11.

80- انظر: الشعراء:192-195، التكوير:17-27.

81- انظر حول مفهوم الجنون هذا وصلته بالنبوة وتصورها عند العرب: دروزة، م.س، ص630 وما بعدها وهشام جعيط، السيرة النبوية، ص85 وما بعدها وعلي مبروك، النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ، ص77.

82- انظر: دروزة، م.س، ص636-654.

83- انظر: سعد زغلول عبد الحميد، الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام، مجلة عالم الفكر:244، وانظر حول انتشار ظاهرة الكهانة والسحر والتعامل مع الجن جواد علي، م.س، ج5، ص308-336.

84- انظر، جواد علي، م.س، ج5، ص358-360.

85- انظر: دروزة، م,س، ص685 – 686.

86- انظر: الأنفال:35، المدثر، ص43-44، القيامة، ص31-32.

87- انظر: دروزة، م.س، ص794-795.

88 - انظر: علي عبد الواحد وافي، الصوم والأضحية بين الإسلام والأديان السابقة، ص43.

89- انظر: الحج، ص25.

90- انظر: دروزة، م.س، ص804-807.

91- انظر: جواد علي، م.س، ج5، ص217-218.

92- انظر: البقرة:196-203، آل عمران:95-97، الحج:25-33، التوبة:3، 17-19، 28، الأنفال 34-35.

93 - انظر: صادق آئينه وند، الحجّ الإبراهيمي والحجّ الجاهلي، مقال متوفر على الانترنت http://www.tohajj.com/

94- (يَوْمَ يَخْرُجُونَ منْ الأَجْدَاث سرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفضُونَ) المعارج:43.

95 - انظر حول دلالة آيات القرآن على مراسم الحج في الجاهلية: دروزة، م.س، ص306-353 ونبيل العلاني، م.س، ص227-245.

96- انظر حول النذور والقرابين وأنواعها في الجاهلية جواد علي، م.س، ص5/196-213، صالح العلي، م.س، ص258 وما بعدها و نبيل العلاني، م.س، ص246-261 و سارة الجويني حفيز، القربان في الجزيرة العربية قبل الإسلام عند الأميين، ص182-200 شهادة الدراسات المعمقة – المعهد الأعلى لأصول الدين – جامعة الزيتونة 1998.

97- (وَكَذَلكَ زَيَّنَ لكَثيرٍ منْ الْمُشْركينَ قَتْلَ أَوْلاَدهمْ شُرَكَاؤُهُمْ ليُرْدُوهُمْ وَليَلْبسُوا عَلَيْهمْ دينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّه مَا فعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) الأنعام:137، (قَدْ خسرَ الَّذينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بغَيْر علْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ اللَّه افْترَاءً عَلَى اللَّه قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدينَ) الأنعام:140 (انظر: أبو حيان، البحر المحيط:4/229).

98- انظر: جواد علي، م.س، ج5، ص302.

99 - (وَقَالُوا مَا في بُطُون هَذه الأَنْعَام خَالصَةٌ لذُكُورنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فيه شُرَكَاءُ سَيَجْزيهمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ)[الأنعام:139]، وانظر: الأنعام، 143-144، يونس:59.

100- انظر: المائدة:103.

101- انظر: جواد علي، م.س، ج5، ص209، نبيل العلاني، م.س، ص254.

102- انظر: جواد علي، م.س، ج6، ص327-336.

103 - انظر: ن.م، ج6، ص326، كارين أرمسترنغ، الله والإنسان، ص145، هشام

جعيط، أزمة الثقافة الإسلامية، ص49.

- انظر: جواد علي، م.س، ج5، ص29، 66/347، عبد الحليم محمود، م.س،104 ص50.